قصة رمزية

المجـــــــــــرم

بقلم الأستاذ رشدى ميخائيل السيسى

امسكوا اللص !! اللص ! اللص ! امسكوه !!

انبعثت هذه الأصوات من قصر رءوف بك رئيس جمعية الانسانية الخيرية بالقاهرة ومدير إحدى البيوتات المالية الكبيرة ، فهب جميع فقراء الشارع وعامته وتقاطروا إلى حيث مبعث الصوت ، وإذ عرفوا مصدره سارعوا للتنفيذ وكل منهم يبغى أن يربح فضل القبض على المجرم...

وخلف إحدى بوابات حديقة القصر عثروا على شاب وسيم رغم شحوب وجهه وضمور بدنه ، عليه أثواب مهلهلة أو أطمار بالية ، وكان يرتجف ارتجافا ولا يكاد يقوى على حمل نفسه، فهلل العامة لهذا الفوز وكبروا ثم أخذوا بخناق المجرم... وأراد الشاب أن يتكلم فأرتج عليه الكلام وصمت إذ لم يلمح على أى فرد ممن يحيطون به علائم عطف أو إشفاق.

* * *

قال رءوف بك غاضباً : ألم تجد من تسرقه غيرى، وأنا المحسن الذى لا أجد فقيراً «مستحقاً» إلا أعطيته ، أو منكوبا إلا أقلته من عثرته ، أو فريسة لكوارث الزمن إلا أنقذته ؟ أهذا جزاء من كرس وقته وجهوده لخدمة الانسانية وتخفيف ويلاتها ؟!.. تكلم ، أليس لديك ما تجيب به ؟ ولكن أى جواب بعد ما حدث وبعد ما ضبطوك متلبساً بجريمة السرقة !! أتنكر، إه ؟ لست ضعيفاً إلى هذا الحد ...

فجاهد «المجرم» جهاداً شديداً حتى تيسر له أن ينطق، إنما فى ألفاظ مرتعشة خافتة فيها ألم ويأس ، وبصوت كأنه ـ لفرط ضعفه ـ صادر عن أعماق القبور : أمى تحتضر يا سيدى ، وأنا أموت جوعا ، ولقد طرقت بابكم الكريم ـ من قبل ـ أسأل عملا أو إحسانا ، فرددت خائباً ..

فقال رءوف بك ـ وقد ارتسمت القسوة على وجهه بصورة واضحة رهيبة ـ : وإذن فأنت تثأر لنفسك منى !! يا للخائن المجرم !! نعم مثلك من يرد خائباً وتوصد دونه الأبواب ، لأنك أثيم شرير ، وليس أدل على إثمك من حادثة اليوم .. إلى السجن أيها المجرم حتى تنال جزاء ما اقترفته يداك من شر .. خذوه !!

فانفرجت شفتا الشاب عن ابتسامة مرة يفعمها الاستهتار، وخرج من لدن رئيس جمعية

الانسانية الخيرية يحيط به جلادوه من إخوته الفقراء البائسين الذين رضوا أن يصنعوا من أنفسهم عبيداً للأغنياء ، وساقوه حيث أودع غيابة السجن ...

* * *

وكانت كلمة القضاء .. وإذ هي تقضي بحبس الشاب سنة مع الشغل ، لأنه وإن ثبت للقضاء قطعاً أن الشاب لم يلجأ إلى السرقة إلا لإنقاذ والدته من براثن الموت ولخلاص نفسه ، ولكن القانون صريح لاتأويل فيه، ويزيد القانون تشدداً وعنفاً أنه في هذه الحال بالذات إنما يحمي رءوف بك نصير البائسين وملاذ الفقراء والمعوزين .

وهتف أتباع المحسن الكبير في حماسة ظاهرة: يحيا القضاء العادل ! يحيا القضاء العادل !

وهمس بعض الأغبياء من الحاضرين : لعله من القضاء خطأ غير مقصود !!

وأما رءوف بك رئيس جمعية الانسانية الخيرية فراح يتحدث إلى كل من لاقاه ـ في تواضع وفي غير افتخار ـ بأنه كان أعقل من أن يعطي الإحسان لمن لا يستحقه ...

* * *

في كوخ حقير بإحدى أطراف المدينة النائية ، وفوق حصير بال تحيط به أربعة جدران سوداء مرطبة ، راحت أم « المجرم » العجوز تنادي ولدها الوحيد العزيز وهي في غيبوبة النزع الأخير: ولدي! ولدي! هاك استمع سر مولدك فقد حلت الساعة! ولدي! ولدي! وكانت زائغة البصر تنشد وجه ابنها عبثاً فيمن حولها من الفقراء الذين أخفوا عنها الحقيقة المرة ، وكانت تحتضر في بطء كأنما كانت تستمهل الموت حتى تودع وحيدها الذي أودعوه غيابة السجن وبات محالا أن تراه ... ولكن ... ولكن كأن الموت أشفق أخيراً على العجوز أن يطول عذابها فلم يرض أن يمهلها ، وإذ حلت الساعة الرهيبة لفظت الأم آخر أنفاسها وهي تردد : ولدي ! ولدي !

* * *

وتولت جمعية الانسانية الخيرية التي يرأسها رءوف بك دفن رفات العجوز الفقيرة إذ لم يكن لها أحد يعتني بها أو يهتم لشأنها بعد ابنها السجين، وأثناء ماكانوا ينقلون جثمانها ليواروه التراب عثروا في نجوة تحت الحصير على صندوق صغير من العاج هو كل تراثها، فأخذوه وسلموه رئيس الجمعية ...

وفي استهتار وافر وعدم مبالاة فتح رءوف بك الصندوق وتناول منه ملفاً صغيراً من الأوراق هو كل ما يحتويه، وإذ كان يقلب هذا الملف بين يديه سقطت منه صورة فتوغرافية صغيرة عرف فيها رءوف بك والده الباشا بلباسه العسكري.. فأخذته رعدة، جالد حتى تغلب عليها.. ثم راح يقرأ ما بالملف من أوراق، فإذا هو في صدد قصة رائعة حزينة كان والده الباشا بطلها.

عرف والد رءوف بك هذه العجوز منذ نيف وثلاثين سنة، ولم تكن قد تخطت ـ إذ ذاك ـ العقد الثالث من عمرها فأحبها إلى حد الولع، إذ كانت وافرة الحسن رائعة الجمال، وعاشرها فترة أنجبت فيها ذلك الشاب البائس الذى زج به رءوف بك إلى السجن وهو أخوه من أبيه، ثم مات الباشا وتسترت الأم على نفسها خشية الفضيحة والعار، وتوالت النكبات عليها فباتت ولا مورد رزق لها فى الحياة سوى جمالها إن شاءت، فأبت أن تتبذل وراحت تشتغل لتعيش..

تنازعت نفس رءوف بك أفكار متباينة وعواطف متضادة وراح نهباً مقسما لها، فهو يشفق تارة ويقسو تارات، وأخيراً انتصرت فيه عاطفة الأنانية وحب الذات، فقام إلى باب حجرته وأوصده، ثم عمد إلى الملف فأشعل فيه النار وظل يرقبه حتى التهمته عن آخره.

* * *

استراح ضمير رءوف بك الحى، ثم خرج من غرفته متزن الخطوة فى غير غرور، وسار بين صفوف المعجبين به والمريديه الذين كانوا لا يفتأون يرددون آيات الإعجاب به وبخلقه المتسامح السامى الذى يأخذ الأم بجريرة ابنها؛ ثم لم يتمالكوا أنفسهم من أن يهتفوا له جميعاً فى صوت واحد: يحيا رءوف بك ملجأ البائسين!! يحيا المحسن الكريم!!...

رشدى ميخائيل السيسى

مخاطرات الشباب

أو الأميرة الهندية

رواية مصرية غرامية أخلاقية اجتماعية

حافلة بالعواطف النبيلة والمفاجآت العنيفة

تجمع إلى الحب العذرى تحليلا دقيقاً لأهم خوالج النفس الشريفة

بقلم الأديب: حسن رشاد بمعهد التربية

مصدرة ومنقحة ببحث فى أدب القصة وتطورها بقلم صاحب «المعرفة»

صفحاتها ٢٠٨ وثمنها ٥ قروش مصرية تطلب من المؤلف أو من إدارة «المعرفة»